

ظاهرة المُتْرَك اللفظي وشكّلة غموض الدلالة

الكتّاب احمد نصيف البناي

الأستاذ المساعد بكلية الآداب - بالجامعة المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

تحتلّ « ظاهرة المُتْرَك اللفظي » مكاناً بارزاً في حقل الدراسات الدلالية ، لأنها واحدة من مجموعة الظواهر التي تؤلف بمجموعها ما يُسمّى في علم الدلالة الحديث بالعلاقات الدلالية (٥) . وهذه الظاهرة تمثل أول ظاهرة دلالية عرفها الفكر الانسانيّ ، بعد معرفته التسمية أو (وضع الاسماء للأشياء) . واختلفت وجهات نظر اللغويين والدلالين الى صلة هذه الظاهرة بوضوح الدلالة وغموضها ، فذهب فريق من قدامى الدلالين - عندنا - ومن محدثي الغرب ، الى أن المُتْرَك اللفظيّ يسبب نوعاً من الإبهام أو الغموض في الدلالة . لذلك سطت وجهة نظرهم ، ثم رددتُ عليها ، لان هذه الظاهرة ترتبط - من حيث الوضوح أو الغموض - بقضايا سياقية عديدة نسيها أو أهملها هؤلاء الدالايون .

وإذا كان لكل ظاهرة من ظواهر العلاقات الدلالية منابع كوّنتها ، فإني وجدت أن من عناصر استكمال البحث أن اعرض لهذه المنابع .

(٥) Semantic Relations

وقد جاء بحثي في ثلاثة أقسام ، أو (مباحث) :

الأول : مفهوم الظاهرة وصلتها بالفكر الانساني .

الثاني : منابعُ الظاهرة .

الثالث : الظاهرة بين وضوح الدلالة وغموضها .

وآمل أن اكون وقيتُ هذه الظاهرة حقها من البحث .

و غاية ما يفعله الإنسان الباحث أن يجتهد . وقد بذلتُ جهدي ، ولم
آل . فإن وُقِّتْ فتلك أمنية كل مفكر وباحث ، وإلا فأرجو ألا أحرم
وجهاً نظر أخرى يحملها زملائي أو يحملها مفكرون ذوو أقدام راسخة في
عام الدلالة . لأقوم بها البحث .

والله أسأل أن يبدد خطانا ، ويلهمنا الصواب في القول والعمل ، وهو
حسبنا ونعم الزكي .

★ ★ ★

المبحث الأول

مفهوم الظاهرة وصَلَتُها بالفكر الإنساني

تعني هذه الظاهرة وجود لفظة واحدة دالة على معنيين أو أكثر دلالة على السواء . (١)

فالمشترك اللفظي يعني وجود لفظة واحدة دالة على أكثر من معنى ؛ ولا حدود لهذا الأكثر ، فعلى قدر الاستعمال تكون الحدود ، غير انها حدود قابلة للتغيير . بل نستطيع أن نقول مطمئنين : إن التغيير من طبيعتها ، فكلما جدّ جديد في هذا الميدان اللغوي الواسع ، وظهرت معانٍ جديدة ، أضيفت الى المحصول اللغوي ، فازدادت رقعة هذه الظاهرة . وكلما زالت دلالة من دلالات اللفظة من الاستعمال ضاقت المساحة اللغوية لهذه الظاهرة ؛ وهكذا اللغة : ميلاد وموت ، ومدّ وجزر ؛ وظهور واختفاء ؛ كالحياة الإنسانية نفسها .

ووجود هذه الظاهرة في اللغات المتقدمة في المضمار الحضاري أمرٌ أقرته الدراسات اللغوية الحديثة .

غير أن اللغات البدائية تخلو من هذه الظاهرة . وتوجد فيها بدلاً من ذلك كلمات خاصة للدلالة على المعاني الجزئية ، كما لاحظ (إدوارد ساير (٢) وستيفن أولمان) ، (٣) . وهما من أساتذة علم اللغة في العصر الحديث .

يقول أولمان : (والآثار المترتبة على تعدد المعنى للكلمة الواحدة بالنسبة الى الثروة اللفظية للغة ؛ آثار بعيدة المدى . من ذلك مثلاً : أن وجود كلمة

(١) الأشياء والتفائير في القرآن الكريم / ٨٩ . وما بعدها .

(٢) نظريات في اللغة ، لأنيس نريمية / ٢٣ .

(٣) في كتابه : دور الكلمة في اللغة / ١١٥ - ١١٦ .

مستقلة لكل شيء من الأشياء التي قد نتناولها بالحديث من شأنه أن يفرض حِملاً ثِقِيلاً على الذاكرة الانسانية . وسوف يكون حالنا حينئذ أسوأ من حال الرجل البدائي الذي قد توجد لديه كلمات خاصة للدلالة على المعاني الجزئية: كغسل رأسه ، وغسل نفسه ، وغسل شخص آخر ، وغسل رأس شخص آخر ، وغسل وجهه ، وغسل وجه شخص آخر .. الخ . في حين لا توجد لديه كلمة واحدة للدلالة على العملية العامة البسيطة ، وهي : مجرد الغسل .

إن أول قضية من قضايا صلة الفكر الإنساني باللغة وبالعالم الخارجي نشأت في ذهن الإنسان هي قضية وضع رموز للأشياء ، أو أسماء للمُسَمَّيات ، وهي ما أشارت إليه الآية الكريمة : (وعلم آدم الأسماء كلها) (٤) .

وهي مسألة تؤيدها كل الوقائع التي تتصل بفكر الإنسان وصلته بالعالم الخارجي ، مهنا كانت النظرية التي نعتد عليها في نشأة اللغة الإنسانية (٥) . فاللغات البدائية ، لم تكن تعرف ظاهرة المشترك اللفظي ، لأنها ذات صلة بالرقى الفكري والحضاري للإنسان ... وما اللغة إلا تعبير عن هذه التواحي المتصلة بالفكر الإنساني .

أما في الجانب الآخر من جوانب الحضارة الإنسانية ، فإن وجود ظاهرة المشترك اللفظي في اللغات الحية المتحضرة أصبح من القضايا المسلم بها ، كحضور الأريج في الياسمين أو القدّاح . وفي لغتنا الجميلة تبدو هذه الظاهرة واضحة وضوح الشمس في وسط النهار الصيفي .

وقد اكتنيت في التمثيل لهذه الظاهرة - في لغتنا - بانمطتين : واحدة

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣١

(٥) تنظر انشاميل في : المدخل الى علم اللغة . للدكتور رمضان عبد التواب ، (ص ١١٠ وما بعدها . ونظريات في اللغة ، لأبيس فريجة ، صفحات : ٢٣ وما بعدها . وكذلك :

O. Jespersen: Language, P. 330 FF.

الدكتور احمد نصيف الجنابي

فعلية ، والاخرى اسمية . فأعطيت مثلاً على الأولى الفعل (قضى) ، وأعطيت
مثلاً على الأخرى الاسم (المدى) :

فالفعل (قضى) يأتي بمعان عدة هي :

(١) قَضَلَ فِي الْأَمْرِ ، وَحَكَمَ .

ومن أمثاله قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٦) ،

أي : يفصل بينهم بحكمه ، وقوله تعالى : (وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) (٧) ،

وقوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَ رَسُولُكُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ) (٨) .

ومن هذا الباب لفظ القاضي ، ولفظ القضاء .

(٢) أَرَادَ إِرَادَةً تَطْبِيعَةً .

ومنه قوله تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (٩) ، وقوله تعالى : (إِذَا

قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ) (١٠) .

(٣) وَيَأْتِي بِمَعْنَى عَمِلَ عَمَلًا بِتَدْرُجٍ وَتَمَكُّنٍ .

ومنه قوله تعالى : (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ : إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا) (١١) ، وقوله تعالى : (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) (١٢) .

(٤) وَيَأْتِي بِمَعْنَى انْتَهَى نِهَآيَةً لَا رَجْعَةَ فِيهَا .

ومنه الآية الكريمة : (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (١٣) ،

(٦) سورة يونس ، الآية : ٩٣ .

(٧) سورة الزمر ، الآية : ٦٩ .

(٨) سورة يونس ، الآية : ٤٧ .

(٩) سورة الاحزاب ، الآية : ٣٦ .

(١٠) سورة آل عمران ، الآية : ٤٧ .

(١١) سورة طه ، الآية : ٧٢ .

(١٣) سورة يوسف ، الآية : ٤١ .

(١٢) سورة الأنفال ، الآية : ٤٤ .

والآية الكريمة : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) (١٤) .

(٥) وبمعنى أنجز العمل وأتمه وفرغ منه .

ومنه قوله تعالى : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانثَرُوا فِي الْأَرْضِ) (١٥)

وقوله تعالى ؛ (فَإِذَا قُضِيَتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ) (١٦) .

وبهذه الدلالة جاء الفعل (قضى) في بيت أبي ذؤيب الهذلي :

وعليهما مسرودتان ، قضاهما

(داود) ، أو صنَّع السَّرابغِ (تبع)

(٦) وقضى فلانٌ عبرته : بكى حتى شفى .

وعلى هذا جاء بيت أوس بن حجر (١٧) .

أم هل كثيرٌ بكى لم يقض عبْرته

إثر الأحيّة ، يوم البين معذور

ويبدو أن هذه الرؤية ، وهذا التصور ، لا بدّ منهما ، لأننا لانستطيع

أن نفترض معرفة الإنسان بظاهرة المشترك اللفظي قبل معرفته وضع اسم

لكل مُسمّى ، بشكل منفصل ؛ لأن معرفة المشترك اللفظي يقتضي معرفة لون

من ألوان الرابطة الفكرية التي تفرضها هذه الظاهرة على الفكر الانساني .

كما تقتضي معرفة ظاهرة المشترك اللفظي معرفة الرابطة الاشتقاقية بين الالفاظ ،

وهي مرحلة تقتضي معرفة أوسع من معرفة التسمية المجردة ، او وضع

الرموز للأشياء مادية ومعنوية .

(١٤) سورة مريم ، الآية : ٢٩ .

(١٥) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .

(١٦) سورة (البقرة) الآية : ١٠٠ .

(١٧) السان (قضى) ٢٠ / ٤٧ .

الدكتور احمد نصيف الجناحي

وقد أدل فريق من أساتذة اللغة في القرن العشرين بشهادات تدلّ دلالة قوية على صحة هذا التصور وتعضده . فهذا (ساير) يقول في كتابه « اللغة » (١٩٢١ م) : « كلما رجعنا الى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد ، وعدم منطقي . وكلما تقدمنا نحو العصر الاخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق » . ويقول أيضا : « إن في لغة قبيلة يانا Yana ، في كاليفورنيا ، نوعين من التراكيب : واحدا للنساء ، وواحدا للرجال ، أي* : أن لفظة بيت في لغة النساء كلمة مغايرة للفظه بيت في لغة الرجال) .

إذا أضفنا الى ذلك شهادة « س . أولمان » في كتابه دور الكلمة في اللغة (١٩٥٤ م) ، وقد مضت ؛ ظهر لنا أن اللغات البدائية تتسم بكرنها :

- أ . تفتقر الى المنطق .
- ب . تفتقر الى القياس .
- ج . تفتقر الى المشترك اللفظي .

وهذا يدلّ على أنّ أول ما نشأ في ذهن الإنسان هو وضع اسم لكل مسمى ، وأنّ (آدم) أصل الإنسان ، لم يكن يعرف من العلاقات بين الفكر والأشياء إلاّ هذه العلاقة القريبة : علاقة تسمية بسيطة بساطة الحياة الإنسانية في أول مراحلها .

وكُلّ الوجوه التي يدلّ عليها الفعل (قضى) ترجع الى أصل واحد ، هو التمام والانقطاع « وكل ما أحكم عمله وأتمّ أو أدّى أداة واجبا ، أو أعلم أو أنفذ فقد قضى » (١٨) .

(٧) ومنه : القضاء والتقدّر

والمرادُ بالتقدّر : التدبير . وبالتضاء : الخائقُ .

(١٨) السان (قضى) .

وعليه جاءت الآية الكريمة : (فتضاهنّ سبع سمّرات) (١٩) ، أي :

فخاتمتهنّ وعملهنّ وصنعهنّ وأحكمنّ خاتمتهنّ .

وعليه جاء قول عمرو بن ضبيعة الرقاشي : (٢٠)

ألا ايقُلْ من شاء ما شاء ، إنما

يُلامُ التّتي فيما استطاع من الأمر

قضى الله حُبّ المالكيّة فاصطَبير

عليه ، فقد تجري الأمورُ على قدر
فالتضاه والتقدير ، أمران متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ؛
لأنّ أحدهما بمنزلة الأساس (وهو القدر) ، والآخر بمنزلة البناء (وهو
التضاه) .

(٨) ويأتي الفعل (قضى) بمعنى (مات وأمات) ، لازماً ومتعدياً .

ويبدو أن الفعل (قضى) بهذه الدلالات الأخيرة قد تطور ، من حيث

التركيب النحوي (٢١) ، الى أربع صيغ :

• الصيغة الأولى ، وتتكوّن من :

الفعل + الفاعل + حرف الجرّ + الاسم المجرور .

والاسم المجرور ، هو المفعول به في المعنى .

ومن أمثله الآية الكريمة : (فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته

إلاّ دابة الأرض تأكل منسأته) (٢٢) .

وهذه الصيغة هي الأصل في هذا التركيب النحوي .

(١٩) سورة فصلت ، الآية : ١٢ .

(٢٠) ديوان الحماسة / ٤٣٩ (ق ٥٨٦)

(٢١) Syntactic Structure

(٢٢) سورة سبأ ، الآية : ١٤ .

الدكتور احمد نصيف الجناي

• الصيغة الثانية ، وتتكون من :

الفعل + الفاعل : اسم ظاهر او ضمير + الجار والمجرور .

ومن أمثلتها قوله تعالى : (يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) (٢٣) ، أي :

بالموت .

وقد تطورت الصيغة الثانية إلى :

• الصيغة الثالثة ، وتتكون من :

الفعل + الجار والمجرور .

ومن أمثلة هذه الدلالة قولهم : « قضى عليه » ، أي : أهلكه او أنهى دوره .

وعلى هذه الصيغة جاءت دلالة العبارة : « الضربة القاضية » في الملائكة .

• الصيغة الرابعة ، وتتكون من :

الفعل + المفعول به (ضمير متصل) + الفاعل (ضمير مستتر)

ومن أمثلة هذه الصيغة قول : عروة بن حزام يصف ناقته ، في نونته

المشهورة :

تَحِينُ قَتْبَيْدِي مَابِهَا مِنْ صَبَابَةٍ

وأخشي الذي لولا الأسي (لقضائي)

وهنا يصدق قول العالم اللغوي (جبرسن) ، في كتابه - الجدير

بالترجمة - (٢٤) « اللغة : طبيعتها ، وتطورها ، واصولها » : « ليس هناك

أدنى ريب في أن جميع اللغات تتجه - في تطورها - نحو تقصير صيغ

الكلمات » (٢٥) .

(٢٣) سورة الزخرف ، الآية : ٧٧ .

(٢٤) طبع بالانجليزية - حتى سنة ١٩٦٨ م - ثلاث عشرة طبعة .

(25) O. Jespersen : Language, P. 330

وقد سمى العربُ الموتَ : « القَضيَّ » ، بزنة « الرليّ والرصيَّ » .
وهنا حدث تطوران :

الأول : استحداث كلمة جديدة دالة على الموت ، للتخلص منه لغوياً ،
في الأقل .

الآخر : التخلص — من الناحية النفسية — من أذى الموت ، والابتعاد عن
شبحه ، فكربياً ونفسياً ...

وقد استعاضت العربية عن كلمة الموت بكلمات أخرى ، أو بعبارات ،
مثل : مضى ، قضى نجبه ، خلتى مكانه ، صار في ذمة الخلود ، وغيرها .
ويبدو أن الاتجاه نحو التخلص من الموت بالمعنيين السابقين ، قد فعل فعله
في اللغات الحية الأخرى .

ففي الفرنسية يقولون (بدلا من : يموت morir) :

Perir يتنى

Passer يمرّ

Trepasser يعبر

وغيرها من الألفاظ ، التي تسير في هذا الاتجاه . (٢٦)
وكذلك تستعويض اللغة الألمانية عن الفعل « مات » بمثل :

Vergehen : اختفى ، أو : زال .

Verbleichen : استحال اللون ، أو : بهت .

erblassen : امتنع لونه .

ودكذا تفعل كل لغة حية ، ما دام شبح الموت يطارد الأحياء .
ومن أمثلة الأسماء في باب المشترك اللفظي (الهدى) .

(١) أصل معنى (الهدى) : الايصال .

وعليه جاء الحديث الصحيح الذي رواه الامام البخاري في صحيحه عن

الدكتور احمد نعيم الجناحي

عبدالله بن مسعود ، قال : قال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدي الى البر ، وإن البر يهدي الى الجنة ... وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي الى السُّجور ، وإن السُّجور يهدي الى النار ... » .

(٢) ومن هنا دلَّت لفظة (الهدى) على (الطريق) .

ومن أمثلة هذه الدلالة الآية الكريمة : (او أجدُ على النار هُدًى (٢٧) ، أي : طريقاً .

والشاهد الشعري هو قول الشَّماخ : (٢٨)

قد وَكَلْتُ بِالْهُدَى إنسانَ ساهمة

كَأَنَّهُ مِنْ تَعَامِ الْبُزْمِ مَمْسُولُ

وبهذه الدلالة نفسها جاءت لفظة الهدى في سياق الآية : (وإِنَّكَ لَعَلَى

هُدًى مُسْتَبِينٍ) (٢٩) ، والآية الأخرى : (قل : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) .

ثم اكتسب لفظ « الهدى » معنى مجازياً رداً لدلالة جديدة بالاستعمالات

القرآنية والمجازات النبوية ، فجاء بمعنى التسيير والدلالة على الخاتمة المحمودة

وغير المحمودة ، والنهاية السعيدة وغير السعيدة .

أما في النهاية السعيدة ، فقد جاءت الآية الكريمة : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (٣١) .

(٢٧) سورة طه ، الآية ١٠ .

(٢٨) اللسان (هدى) ٢٢٩/٢٠ .

(٢٩) سورة الحج ، الآية ٦٧ .

(٣٠) سورة الانعام ، الآية : ٩ .

(٣١) سورة الانعام ، الآية ٧١ .

(٣١) سورة الاسراء ، الآية ٩ .

وفي هذه الدلالة جاء لفظ المدى في الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، في خطاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، له : « لَأَنَّ يَهْدِيَّ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » .

أما في النهاية السيئة ، فقد جاءت كلمة « المدى » دالة عليها في الآية الكريمة : (فاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ) (٣٢) .

ولذلك أطلق العرب لفظة « المدى » على « النهار » ؛ لأن الأشياء تظهر فيه ، فيستدل الإنسان بالضياء ، فيصل إلى الأشياء ، ويهتدي إليها بوضوح وجلاء .

ومن هذا الباب اشتغقت الألفاظ الاصطلاحية الإسلامية في القرآن الكريم ، مع إعطائها دلالات جديدة .

فقد سمى الله سبحانه وتعالى القرآن « نوراً وهدى » ؛ لأن هذا الكتاب العزيز نزل بلسان عربي واضح مبين ، ليفهمه الناس حقَّ الفهم ، فيهتدي به من يهتدي على بيئته ، ويضلَّ مَنْ يضلُّ عن بيئته . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) (٣٣) . وقال عزَّ من قائل : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ) (٣٤) .

(٣) وَالْهُدَىٰ يُقَابِلُ الضَّلَالَةَ (فِي الْإِيمَانِ) .

وهذا المعنى كثير الدوران في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وهو المراد بالهدى عند إطلاقه .

ومن الأمثلة عليه قوله تعالى : (قُلْ : إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ) (٣٥) ،

(٣٢) سورة الصافات ، الآية : ٢٣ .

(٣٣) سورة النساء ، الآية : ١٧٤ .

(٣٤) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ .

(٣٥) سورة الانعام ، الآية : ٧١ .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

وقوله عَزَّ عَنْ قَائِلٍ : (ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (٣٦) ،
 وقوله سبحانه : (وَإِنَّ لَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) (٣٧) ، وقوله تعالى :
 (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) (٣٨) .
 وغير ذلك كثير .

(٤) والهدى الكتاب المنزَّل .

أما دلالة لفظة الهدى على القرآن الكريم ، فقد وضحت .

أما دلالتها على التوراة الحقيقية ، فنقله تعالى : (وَاَقْدَأْتِنَا مُوسَىٰ
 الْهُدَىٰ) (٣٩) . ويشنع لهذا التفسير قوله تعالى في آية أخرى : (وَاَقْدَأْتِنَا
 مُوسَىٰ الْكِتَابَ) (٤٠) .

أما دلالتها على الانجيل الحقيقي المنزل على عيسى ، عليه السلام ، فقد
 وردت الآية الكريمة : (وَأَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هُدَىٰ
 لِّلنَّاسِ) (٤١) ، مشيرةً إليه .

(٥) ويأتي الهدى بمعنى الرضوح والبيان .

وفي هذه الحال يكون فعله لازماً ، لا متعدياً .

وعلى هذا ذات الآية الكريمة : (أَفَلَمْ يَهْدِ لِمَ كَم أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ
 الْقُرُونِ يَسْتَشْرُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) (٤٢) . ومثلها الآية الكريمة : (أَوْ لِمَ يَهْدِ
 لِمَ كَم أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ) (٤٣) .

(٣٦) سورة الانعام ، الآية : ٨٨ .

(٣٧) سورة النمل ، الآية : ٧٧ .

(٣٨) سورة فصلت ، الآية : ١٧ .

(٣٩) سورة غافر ، الآية : ٥٣ .

(٤٠) سورة السجدة ، الآية : ٢٣ .

(٤١) سورة آل عمران ، الآية : ٤ .

(٤٢) سورة طه ، الآية : ٤ .

(٤٣) سورة طه ، الآية : ١٢٨ .

(٤٣) سورة السجدة ، الآية : ٢٦ .

(٦) والمادي : الداعي :

ومن أمثله القرآنية قوله تعالى : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ، فَأَمَّا نَا بِهِ) (٤٤) ، أي : يدعو إلى الرُّشْدِ . وقوله تعالى : (وجعلنا منهم أئمةً يَهْدُونُ بِأَمْرِنَا) (٤٥) ، وقوله تعالى : (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ) (٤٦) .

(٧) والمادي : معرفة السر أو الأمر الخفي .

قال تعالى في شأن سليمان وبلقيس : (قَالَ : نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرِ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنْ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) (٤٧) ، أي : أنعرف السر أم تكون من الذين لا يعرفون (٤٨) .

(٨) والمادي : الإلهام .

ومن ذلك الآية الكريمة : (الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (٤٩) ، والآية الكريمة : (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) (٥٠) .

وقد اوردت كتب اللغة وكتب المشترك اللفظي دلالات أخرى للفظه «المدي» (٥١) ، غير أنني وجدتها متداخلة مع الدلالات التي اوردتها ، ولذلك اعرضت عن ذكرها .

(٤٤) سورة الجن ، الآية : ٢ .

(٤٥) سورة السجدة ، الآية : ٢٤ .

(٤٦) سورة الاحقاف ، الآية : ٣ .

(٤٧) سورة النمل ، الآية : ٤١ .

(٤٨) الأشباه والنظائر ، لمقاتل بن سليمان / ٩٢ .

(٥٠) سورة الأعل ، الآية : ٣ .

(٤٩) سورة طه ، الآية : ٥٠ .

(٥٠) سورة الأعل ، الآية : ٣ .

(٥١) الأشباه والنظائر ٨٩ - ٩٣ ، وتهذيب اللغة (هدى) ٣٧٨/٦ ، والسان (هدى)

٢٢٩/٢٠ - ٢٣١ .

الدكتور احمد نصيف الجناحي

المبحث الثاني

منابعُ ظاهرة المشترك اللفظي

إن منابع المشترك اللفظي الأساسية هي :

(١) التوليد الدلالي

توليدُ الدلالة الجديدة سِمَة من سِمات الحياة اللغوية النامية المتجددة أبداً . وهو علامة من علامات الصحة ، وإشارة الى أن الحياة طبيعية بشرط أن يكون في نطاق الحياة وفي حدود متطلباتها الفكرية والثقافية والعلمية ، لا أن يكون سِمَة من سمات التثنية بكل جديد - مهما كان - ولا الركض وراء كلِّ مدعٍ مدخول السريرة يحاول باسم الجديد أن يمسح لغة الأُمَّة وتراثها وشخصيتها . وإذا كان الركض وراء كل جديد منهجاً للأُمَّة ، فهذا يعني أن هذه الأُمَّة قد فقدت مقوماتها وروحها وشخصيتها .

إن الحياة الإنسانية والحياة الكونية ، لهما جانبان :

جانب الثبات ، وجانب التغيير . ويحدث التغير بحسب القوانين والسنن الكونية الثابتة التي وضعها خالق الكون .

وما اللغة إلا مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ، فالدلالات تتطور فيها أو تتولد (أو تُولَد) ، بحسب ضوابط وقوانين وأنظمة . واكل لغة قواعداً وأنظمة يجب أن تُراعَى ؛ لأنَّ عدم مراعاتها يُخرج الإنسان عن طبيعة تلك اللغة ، فلا يفهم أهلها . فكيف بغيرهم ؟ !

فاللغة ودلالاتها في تجدد دائم وفي ميلاد مستمر . وتجدها سِمَة من سِمات الحياة ، مثل تجدد الحجيرات في جسم الإنسان .

وفي اللغة العربية - قبل ظهور نور الاسلام - معجم كبير من الدلالات . ثم جاء الإسلام فدخلت اللغة العربية بالقرآن الكريم ، في طور جديد ،

وحياة جديدة . وجاء القرآن العظيم باستعمالات جديدة ودلالات جديدة ...
إنه سفرٌ جديد للحياة الإنسانية ، والحياة اللغوية .

وقد سَمَّى اللغويون هذا الجديد اللغوي « المصطلح الإسلامي » ، أو
« الكلمات الإسلامية » . والتعبير الأول أدق .

ولأبي حاتم الرازي : أحمد بن حمدان (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) كتاب :
« الزينة في الكلمات الإسلامية » .

وللشريف الجرجاني (المتوفى سنة ٨١٦ هـ) كتاب : « التعريفات » ،
وهو في مصطلحات العلوم والآداب العربية والإسلامية .

وبعدهما يأتي التهانوي (المتوفى سنة ١١٥٩ هـ) ، بكتابه القيم :
« كشاف اصطلاحات الفنون » ، وهو أوسع كتب المصطلح الإسلامي .

وفي قسم من كتب اللغة « كالصاحبي » (لأحمد بن فارس ، المتوفى
سنة ٣٩٥ هـ) ، و « المزهرة للسيرطي » (المتوفى سنة ٩١١ هـ) مباحث في
المصطلحات الإسلامية .

وللأدباء والكتاب والشعراء المبدعين أثر كبير في توليد الدلالة الجديدة .
فقد أتى هؤلاء باستعمالات مستحدثة ، ودلالات جديدة لم تكن معروفة
عند العرب من حيث الاستعمال ، فوسّعوا بذلك من دائرة المشترك اللفظي .

وقد لاحظ (ابن فارس) الأسباب الإسلامية لتطور اللغة العربية ، فقال :
« كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ...
فلما جاء الإسلام ، حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أهور ،
ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع أخصر ، بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ،
وشرائط شرطت » (٥٢) .

الدكتور أحمد نصيف الجنابي

وهذه نظرة دقيقة وواقفة سليمة ، تمثل واقع اللغة العربية بعد نزول القرآن الكريم .

وهي ليست بغريبة على الرجل الذي ألف « مقاييس اللغة » ، الكتاب المعبر عن نظرة أصيلة الى اللغة ، سواء أوافقنا وجهة نظره أم خالفناها .

وأول كتاب يتصل بالدراسات القرآنية في علم الدلالة له علاقة بظاهرة المشترك اللفظي ، هو كتاب « الأشباه والنظائر في القرآن الكريم » لمقاتل بن سليمان : اللغوي المفسر ، (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) . وقد جمع فيه (١٨٥) لفظة من ألفاظ المشترك اللفظي ، في القرآن الكريم ، منها الاسماء ، ومنها الأفعال ، ومنها الحروف ؛ وهي أقلها عدداً .

والسمة البارزة في الكتاب أنه يبين أثر السياق في تحديد الدلالة وتوضيحها ، مع بيان أثر اختلاف الموقع في اختلاف المعنى .

غير أنه لم يستوعب كل ألفاظ المشترك اللفظي في القرآن الكريم ، ولا معاني كل لفظ أورده (٥٣) .

وهو بهذا أول معجم دلالي (خاص ومحدود) ، من معاجم المشترك اللفظي ، يصل إلينا .

أما إذا أردنا المعجم بمعناه العام ، فيكون « كتاب العين » للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥ هـ) أول معجم شامل من معاجم المشترك اللفظي (٥٤) .

(٥٣) نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م بتحقيق الدكتور عبد الله محمود شعاعة .

(٥٤) بإزاء هذه الحقيقة التاريخية يكون قول الدكتور أحمد مختار عمر : (إن كتاب المنجد في اللغة ، لكراع النعل ، أتم كتاب شامل يصل إلينا في موضوع المشترك اللفظي) تولا يحتاج ال مراجعة لأن كراع النعل توفي سنة ٣١٠ هـ ، وبينه وبين الخليل أمم بعيد . تنظر : مقدمة المنجد في اللغة / ١٧ بتحقيق الدكتور أحمد مختار عمر .

ومن الألفاظ التي توسع القرآن في استعمالها وولّد فيها دلالات جديدة ،
لفظة « السجود » . وهي من الألفاظ التي لم يذكرها « تماثل » في « أشباه » .
والأصل في استعمال الفعل « سَجَدَ » عند العرب أن يدلّ على الخضوع
والتعظيم . وقد اتخذ التعظيم صوراً عديدة فلما أن يحيى الإنسان رأسه للملك
تعظيماً له ، وإمّا أن يضع جبهته على الأرض . قال ابن سيده : « وكل من
ذلّ وخضع ، فقد سجد » (٥٥) .

وبهذه الدلالة جاءت مجموعة من الآيات الكريمة ، منها : (وإذ قال
زَبْنُكَ للملائكة : اسْجُدُوا لِآدَمَ) (٥٦) .

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير دلالة السجود هنا : « كان
سجود الملائكة لآدم سجود تحية كسجود أبويّ يُوسُفَ عليه السلام ،
لا سجود عبادة » (٥٧) ، وسجود أبويّ يُوسُفَ هو المذكور في الآية
الكريمة : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجُوداً) (٥٨) .
قال الزجاج في تفسير هذه الآية : « كان من سنّة التعظيم في ذلك الوقت
أنه يُسْجَدُ للمعظم » .

وعقب الأزهريّ على هذا القول ، بقوله : « هذا قول الحسن البصريّ .
والأشبه بظاهر الكتاب أنهم سجدوا ليوسف ، دلّ عليه رؤياه الأولى :
(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (٥٩)
فظاهر التلاوة أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له من غير أن أشركوا بالله شيئاً ،
وكانهم لم يكونوا نُهُوا عن السجود » (٦٠) .

(٥٥) اللسان (سجد) ١٩٠/٤ .

(٥٦) سورة البقرة ، الآية ٣٤ .

(٥٧) المحرر الوجيز ، لابن عطية ٢٣١/١ .

(٥٨) سورة يوسف ، الآية ١٠٠ .

(٦٠) تهذيب اللغة (سجد) ١٠ / ٥٦٩ .

(٥٩) سورة يوسف ، الآية ٤ .

الدكتور احمد نصيف الجناي

أما السجود بمعنى الخضوع ، فقد جاءت فيه الآية الكريمة : (وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟) (٦١) . ومنه قول بعضهم .
 • مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَتَسْجُدُ .

أي : تَدِينُ له الملوك بالخضوع والطاعة (٦٢) .

ويأتي السجود بمعنى طأطة الرأس والانحناء .

ومنه قوله تعالى : (فَكُلُّوا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ، وَادْخُلُوا الْبَابَ

سُجَّدًا) (٦٣) .

وأضاف القرآن الكريم دلالات جديدة للسجود ، فجاء بمعنى السجود في

الصلاة بهيئته المعروفة في الصلاة الإسلامية . قال تعالى : (سِيَّاهِم فِي

وَجُرُوهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (٦٤) . قال عزّ من قائل : (وَالَّذِينَ

يَسْتَبِشِرُونَ أَيْرِبَهُمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) (٦٥) . وقوله سبحانه : (تَرَاهُمْ رُكَّعًا

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) (٦٦) .

وهذا هو المعنى الشائع في القرآن الكريم والفقه الإسلامي .

ويطلق « السجود » على الصلاة نفسها ، من باب إطلاق الجزء ويراد به

الكل . قال تعالى : (يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) (٦٧) .

أي : يقرؤون القرآن في الصلاة ، وليس في أثناء السجود ، لأن القرآن

الكريم يُقرأ في أول كل ركعة ، ولا يُقرأ في السجود البتّة .

(٦١) سورة الفرقان ، الآية ٦٠ .

(٦٢) المان (سجد) ١٩٠/٤ .

(٦٣) سورة البقرة ، الآية ٥٨ .

(٦٤) سورة النجم ، الآية ٢٩ .

(٦٥) سورة الفرقان ، الآية ٦٤ .

(٦٦) سورة النجم ، الآية ٢٩ .

(٦٧) سورة آل عمران ، الآية ١١٣ .

فدلّت هذه الآية الكريمة على أن السجود هنا جاء بمعنى الصلاة .

وجاء في القرآن العظيم بمعنى الخضوع لسُنَّ الله في الكون . قال تعالى :
(والله يسجدُ مَنْ في السموات والأرضِ طَرَعاً وكرهاً) ، أي : منهم من
يخضع طائِعاً ، وهو الذي يملك الإرادة ، ومنهم من يخضع بكرها وهو
الذي لا يملك الإرادة ، كالسمرات والأرض والنجوم والكواكب والحيوانات
التي لا تعقل .

وبهذه الدلالة وردت الآية الكريمة : (والتَّجْمُ والشَّجَرُ
يُسْجَدَانِ) (٦٨) .

قال الفراء : « التَّجْمُ » : ما نجم مثل العُشْب والبَتَل . والشَّجَرُ :
ما قام على ساق » (٦٩) .

(٢) تداخل اللهجات .

اللغة العربية المشتركة مركز تجمعت فيه لهجات كثيرة وظواهر لغوية
متعددة .

وأهل أقدم من أشار الى ذلك من اللغويين العرب ، الخليل بن أحمد
الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) ، فقال في كتابه : (العين) :

« رَكِنَ الى الدنيا : مال إليها وأطمأنَّ ، يركنُ ركناً .
وركنَ يركنُ ركوناً ، لغة سُئلي مُضِر ...

وناسٌ أُخِلوا من اللغتين فقال : ركنَ يركنُ .. » (٧٠) .

فالاصل في (فعل يفعل) المخالفة في حركة عين الفعل في الماضي
والمضارع .

(٦٨) سورة النحل ، الآية : ٤٩ .

(٦٩) معاني القرآن ١١٢/٣ .

(٧٠) العين (ركن) ٣٥٤/٥ .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

ويرى الصرفيون العرب أن الاصل في مضارع (فَعَلَ) هو المخالفة بالكسر (يَفْعِل) ، أو بالضم (يَفْعُل) . أما المماثلة (أي : الفتح في الماضي والمضارع) ، فأمر طارئ ، أو من تداخل اللهجات كما لاحظ « الخليل » ، رحمه الله .

وقد قال الرّضيّ : « إعلم أنّ أهل التصريف قالوا : إنّ فَعَلَ يفعل - بفتح العين فيهما - فرع على فعل يفعل أو يفعل » (٧١) .
ولاحظوا أنّ التماثل يحدثُ باطراد إذا كانت عين الفعل ولامه أحد أحرف الحلق : « المزنة والعين والغين والحاء والفاء والماء » (٧٢) .
أمّا إذا لم يكن عينه ولا لامه أحد أحرف الحلق ، فيكون شاذاً عند بعض اللغويين (٧٣) ، ومن تداخل اللغات عند بعضهم (٧٤) .
وما رآه (الخليل) يتعمد فعل يفعل ، الى فعل (بكسر العين في الماضي) .

هذا في باب أرزان الأفعال .

أمّا في باب المصادر ، فقد لاحظ سيويه أنّ العرب جاءت بالمصادر حين أرادت انتهاء الزمان على وزن (فِعَال) ، فقالوا : الصّرام والقيطاع ، وربّما دخلت اللهجة في أخرى فكان فِعَال وفعَال - بفتح الفاء وكسرها - مثل الحِصَاد والحِصَاد (٧٥) .

أمّا في باب الدلالة فإن تداخل اللهجات أدى الى نشوء دلالات جديدة ، وإثراء المشترك اللفظي .

(٧١) شرح الثانية ١١٧/١ .

(٧٢) المنتجب (البيروت) ١١١/٢ وشرح الفعل (لابن يعيش) ١٥٣/٧ .

(٧٣) الكتاب ٢٥٤/٢ .

(٧٤) المعانص ٣٧٤/١ ، ٣٧٥ .

(٧٥) الكتاب ٢١٧/٢ .

- أما من حيث توليد الدلالة الجديدة ، فإن تال اللفظة في لهجة معينة على شيء معين ، وتدل اللفظة نفسها على شيء آخر في لهجة أخرى .
- (فالتالغ) : الشخص الذي يطع عليك .
- ويدلّ - عند أهل اليمن - على « الحلال » . (٧٦) .
- (والسرحان) : الذئب . ويطلق في لهجة هُدَيْل على « الأسد » (٧٧) .
- (والضنّا) : السقم . ويطلق في لهجة طَبِيّ على (الولد) (٧٨) .
- وما زال أهل مصر يتعملون اللفظة بهذه الدلالة الأخيرة ، فتقول الأم لابنها وابتها : يا ضناني ، تريد : يا ولدي . وهي بهذه الدلالة توافق الدلالة النصحي للفظه وبها جاء القرآن الكريم . قال تعالى : (يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ) (٧٩) .
- (والسمد) في الناس : السهو والغفلة ، ويطلق على الغناء في اللهجة الحميرية (٨٠) .
- (والحجر) : الفرس الأنثى . أم يدُخِلُوا فِيهِ الْمَاءَ ؛ لانه اسم لا يشركها فيه المذكر (٨١) .
- والحجر : يأتي في بعض لهجات العرب يُدل على الثبّ والعقل . ومنه قوله تعالى : (هل في ذلك قسّمٌ لِيذِي حِجْرٍ) . وعليه جاء بيت ذي الرمة : (٨٢)

- (٧٦) المنجد (لكراع) : ٢٥٠ .
- (٧٧) اللسان (سرح) ٣١١/٣ .
- (٧٨) المنجد ٢٤٨/ .
- (٧٩) سورة النساء ، الآية ١١ .
- (٨٠) اللسان (سمد) ٢٠٤/٤ .
- (٨١) اللسان (حجر) ٢٤٢ /٥ .
- (٨٢) إيقاع الوقت والابتداء (لابن الأنباري) ٧٥/١ .

الدكتور احمد نصيف الجناين

فأخضبتُ ما بي من صديقي وإنه

لذو نَسَبٍ دانٍ إليّ وذو حِجْرٍ

وتعد المثلثات اللغوية من الوسائل التي تثري المشترك اللغوي .

ويعرفه ابن السِّيد البطليوسي بقوله : « ما اتفقت أوزانه ، وتعادلت أقسامه ، ولم يخالف إلا بحركة فائه فقط ، كالغَمْر والغِمْر والغُمْر ، أو بحركة عينه كالأرَجَل والرَجُل والرَجُل ، أو كانت فيه ضمتان تقابلان فتحتين وكسرتين ، كالأَسْمِ واليَسْمِ والسُّمِّ ... » (٨٣) .

هذا هو المفهوم العام الشائع للمثلث اللغوي (٨٤) .

والمثلث اللغوي نوعان - من حيث الدلالة :

نوع اتفقت فيه الدلالة ، ونوع اختلفت فيه الدلالة .

فإذا جاءت اللفظة الواحدة بثلاث صور : بالفتح والضم والكسر ، وكانت دلالتها واحدة ، فهي من باب تداخل اللغات ؛ لأنه ليس من المقبول عقلاً أن تحرك القبيلة الواحدة الكلمة الواحدة بثلاث حركات لتدل على معنى واحد ؛ لأنّ هذا يحدث التباساً في الفهم . ومن أمثلة ذلك (الحاضرة) بفتح الحاء وكسرها وضمها ، بدلالة واحدة . يقال : كلمته بحضرة فلان وحضرته وحضرته ، أي : بحضوره (٨٥) . ويقال : خيثر اللبن وخيثر

(٨٣) المثلث لابن السيد ١/٩٨ ٢ (بتحقيق : الدكتور صلاح الفرطوسي) .

(٨٤) وألف ابن فارس كتاباً اسمه (كتاب الثلاثة) : عالج فيه تقاليد ثلاثة من مادة واحدة على وزن واحد ، مثل : الحلِيم والحِيل والحِمِيم - ينظر : كتاب الثلاثة ٢٧/ بتحقيق أستاذي الدكتور رمضان عبد التواب (ط - القاهرة ١٩٧٠) .

وعده الدكتور الفرطوسي من كتب المثلثات ، ولا أراه كذلك ؛ لأنه كتاب في الجناس الناقص ، وليس في المثلثات

(٨٥) المثلث ، لابن السيد ١/٤٣١ .

وختَّر ، بمعنى (٨٦) . ويقال : بتغاث وبتغاث وبتغاث لما يُصاد من الطير ، ولا يصيد (٨٧) .

أما في حالة اختلاف الدلالة ، فمن المقبول عقلاً أن تكون القبيلة الواحدة أطلقت ثلاث صور . على ثلاث دلالات ؛ لأن اختلاف الحركة في العربية له أثر كبير في اختلاف الدلالة واختلاف المعنى .

ومن المحتمل أن تكون كل صورة من الصور اللفظية أطلقت على دلالة واحدة في قبيلة واحدة ، ثم اجتمعت الصور الثلاث في اللغة المشتركة ، أو في المعاجم اللغوية في أقل تقدير .

★ ★ ★

(٣) الاستعارة

إن اللغويين العرب - وغيرهم - من الذين يعتقدون بوجود المجاز في اللغة ، يرون أن الكلمة وضعت في الأصل لاستعمال معين . فإذا ما استعملت الكلمة استعمالاً آخر ، وكانت العلاقة بين الكلمتين علاقة مشابهة ، فهذا الاستعمال الجديد هو الاستعارة .

ومن اللغويين المحدثين من يرى ما يراه اللغويون العرب . كاللغوي المعاصر : (س . أولمان ، S. Ullmann) و(ف . ر . بالمر) F. R. Palmer . إلى معنى جديد عن طريق الاستعمال المجازي . فالأول يقول : « إن وظيفة الاستعارة هي إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم عن طريق العلاقة المباشرة

(٨٦) الطلث ١/٨١ ؛

(٨٧) نفسه ١/٣٥١ .

(٥) أي أن كل حركة تمثل صورة لفظية لكلمة تختلف عن الأخرى مثل بر ، وبر ، وبر ، بقم الباء وفتحها وكرها فالصورة الأولى تعني : الحنطة ، والثانية : تعني ما يقابل البحر . والثالثة : تعني الخير ، أو جماع الخير كله .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

بين المدلولين ، غير أن السمات المشتركة نقط هي التي يدركها المتكلم حين يتم الانتقال من المعنى القديم الى المعنى الجديد « (٨٨) .

في حين يرى الآخر (٨٩) : « أن أكثر أنواع الصلات بين المعاني شهرة طريق الاستعارة ، حيث تظهر الكلمة وهي تحمل معنى يتصل بها اتصالاً حرفياً (٩٠) ، والمعنى الآخر - أو المعاني الأخرى - منقولة عن المعنى الأول « (٩١) .

ولاتختلف هذه النظرة أي اختلاف عن نظرة اللغويين والدالين العرب ، بل تتفق معها اتفاقاً جوهرياً .

وفي هذا المقام يرد قول عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في تعريف الاستعارة : « إعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله اليه نقلاً غير لازم « (٩٢) . وقد حفلت لغتنا الجميلة باستعارات بديعة صارت من باب المشترك اللفظي ، واستعملت في الشعر والنثر ، وفي المؤامرات الفنية والمخاطبات الأدبية ، وأثارت الاهتمام ، فدعت الناس الى الاستشهاد بها والتمثل ، في المواطن المناسبة والسياقات الملائمة .

وما في لغتنا الجميلة من هذه الاستعمالات الباهرة لا يدانيه روعة ما هو موجود في كثير من اللغات الحية المعروفة الآن بأدبها وشعرها ونقشها القولي .

(٨٨) س . أو مان : دور الكلمة في اللغة / ١١٦ .

(٨٩) Palmer : Semantics, P. 66

(٩٠) Literal Meaning

(٩١) Sramsfernde Meanidg

(٩٢) أسرار البلاغة / ٣٥ - ٣٦ .

فكلمة (اليد) العنصر المعروف ، قد استعملت استعمالاً مجازية عن طريق الاستعارة ، فكانت بحق من صور البيان العالية .
ومن هذه الاستعارات الجميلة (يَدُ اللَّهِ) ، أي : قدرته . قال تعالى :
(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) (٩٣) .

وقد استشهد بهذا الآية - في سياق المقام - أحد الفلاسفة الإسلاميين في العصر العباسي ، خيرَ استشهد . قال أبو العيْن الشاعر : كان لي خصومٌ ظلمة ، فشكوتهم إلى (أحمد بن أبي دؤاد) وقلت له : إن القوم قد تضافروا عليّ ، وصاروا يداً واحدةً عليّ . فقال (أحمد) : يد الله فوق أيديهم .
ومن الاستعمالات الاستعارية لليد أنها تأتي للدلالة على العطاء الغامر والكرم الثرّ ، وعليه جاء قول (المتنبي) :

له أيادي عليّ سابغةٌ أعدتُ منها ، ولا أعيدُ دُها

ويبدو - والله أعلم - أن أعضاء الإنسان كانت ميداناً واسعاً للاستعمالات الاستعارية ، أكثر من غيرها من المُسمّيات المادية والحسية ؛ لأنها أقرب الأشياء إلى الإنسان .

فالرأس والعين والحاجب والقلب ، كلها قد استعملت استعمالاً مجازية واستعارية ، فأغنت بذلك المشترك اللفظي ، وكانت مورداً عذبا من موارده .
فقد استعمل العرب الرأس استعمالاً استعارياً ، فقالوا :
رأس فلان القوم رئاسة : صار رئيساً عليهم .
وعليه جاء قول النسر بن تَوَلَّب : (٩٤)

(٩٣) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

(٩٤) أساس البلاغة ، قزويني / ٣١٠ .

الدكتور احمد نصيف الجناي

ويوم الكلاب رأسنا الجموع

ضراوا وجمع بني المنقَر

وقالوا : هم رأس عظيم ، أي : جيش على حياله ، لا يحتاجون الى إحلاب (٩٥) .

وفي الحديث الصحيح : « رأسُ الأمرِ الإسلامُ ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهادُ في سبيل الله » .

أما (العين) فقد أطلقوها مجازاً على نفائس الأشياء ، فقالوا : « فلان عين » ، أي : من خيار قومه . ومن ذلك : « مجلس الأعيان » ، لأنه ينتخب من أعيان البلد وخيارهم . وسَمَرُوا الذَّهَبُ عَيْناً ، لأنه أنفَسَ المعادن وأجلاها . وقالوا لمن يصادقك ويواليك رِيَاءً : صديق عين ، (٩٦) . وهو ولي عين . وأنشد الجاحظ :

وهو لي كعبد العين : أمّا لقاؤه

فِيرْضِي ، وأمّا غيبه فَيُظْهِرُونُ

أما (الحاجب) ، فقد أطلقوه على حاجب الشمس ، وأرادوا طرقتها . وشاهده المشهور قول تيس بن الخطيم :

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ

بَدَأَ حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَعَتْ بِحَاجِبِ

وحراجب الصبح : أوائله . قال عبدالرحمن بن سيحان المُحَارِبِيُّ : (٩٧)

حتى إذا الصبحُ لاحت لي حَولَاجِبُهُ

أدبرتُ : أَسْحَبٌ نَحْوِ القَوْمِ أُنُوَابِي

(٩٥) أساس البلاغة / ٣١٠ : والإحلاب : الإغارة .

(٩٦) أساس البلاغة / ٦٦٧ .

(٩٧) نزهة / ١٥٣ .

أما (القَلْبُ) ، فقد أطلقوه مجازاً على (العقيدة) . قال تعالى : (ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ) (٩٨) .

وقالوا : فلان سليم القلب ، يريدون من كان قلبه خالياً من الغل والحقد والحسد . قال تعالى : (وإنَّ مِن شِيعَةٍ لإبراهيمَ إذ جاء رَبَّهُ بِقلبٍ سليمٍ) (٩٩) . وقال عزَّ من قائل : (يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونُ إلا مَنْ أتى اللهُ بقلبٍ سليمٍ) (١٠٠) .

وقالوا : فلان غليظ القلب : للجافي القاسي .

قال تعالى : (ولو كنتَ قَطْأً غليظَ القلبِ لانفَضَّوْا من حَوْلِكَ) (١٠١) .

وقالوا : رجل قلب ، إذا كان خالصاً في قومه .

وامرأة قلب وقابة ، عقيلة في قومها (١٠٢) .

قال أبو وجزة السعدي :

قلبٌ عقيلةٌ أقوامٍ ذوي حَسَبٍ

ترمي المقاب عنها والأراجيل (١٠٣)

وهكذا حفلت اللغة العربية بهذه الاستعمالات الجميلة في ميدان أعضاء الإنسان . ولو أردنا استحصاءها لظال بنا الحديث ، فأقصرنا .

وللشعراء ، إسهام كبير في اغناء المشترك اللفظي بالاستعمالات الاستعارية والمجازية .

(٩٨) سورة الاحزاب . الآية : ٤ .

(٩٩) سورة الصافات . الآية : ٨٤ .

(١٠٠) سورة الشعراء . الآية : ٨٩ .

(١٠١) سورة آل عمران . الآية : ١٥٩ .

(١٠٢) أساس البلاغة / ٧٨٤ .

(١٠٣) ترمي المقاب عنها : أي تذب عنها وتدافع لئلا يذمها .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

فاتقمرُ الكوكبُ المعروف . وعندما استعمله البُحْثُريّ في وصف المتوكل فقال :

يُودُونُ النجى من بعيدٍ الى قَمَرٍ من الإيوانِ يادي
فقد استعمله استعمالاً استعارياً ، لجامع الرفعة والبهاء بينهما .

و(الجَنَّةُ) بمعناها الشائع في الكتاب الكريم ، معروفة ، وقد أطلقها الشعراء على الزوجة استعارياً لجامع الراحة والأنس بينهما . قال قتادة اليشْكُريّ (١٠٤) :

ما أنتِ بالجَنَّةِ الودودِ ولا عندك خيرٌ يرُجى لِثَمَسِ
ولعل (الفرزدق) قد قصد هذا المعنى حين وصف حالته ، بعد طلاق زوجته :

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُتَيْبِيِّ لَمَّا
غَدَدَتْ مِنِّي مِطْلَمَةٌ (نَوَارُ)

وكانت جَنَّتِي فخرجتُ منها

كَأَدَمٍ حينَ أخرجتُ الضَّرَارُ

وعلى سبيل الاستعارة جعل (المتنبي) سيف الدولة شمسَ الزمانِ وبلدرةُ ، فقال :

أحِبِّكَ يا شمسَ الزَّمانِ وبلدرةُ

وإنْ لا مَنِّي فيكَ السَّهْيُ والفراقُ

وكذلك فعل (اليتهامي) حين رثى ابنه في رائيته المعروفة :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عُمره

وكذلك عُمرُ كواكبِ الأَشْجارِ

(١٠٤) الزاهر . لابن الانباري ٦٤/٢ (تحقيق الدكتور حاتم الغسان) .

إن قابلية الشاعر على تنظيم تجربته في استعارات موحية بالصورة الفنية ليس إلا جزءاً من قابلية أكثر قدرة على تنسيق تجربته (١٠٥) .

وتأثير التصيدة ناتج عن نجاح الشاعر في تنظيم تلك التجربة .

والشاعر - والحالة هذه - مضطّر لأن يكون استعارياً عندما يريد أن يحدّد انفعالاته وينظم تجربته الفنية ، ثم يجد نفسه تفتّش في مظاهر العالم الخارجي عن المماثل لانفعالاته ، أو عن البديل الموضوعي (١٠٦) لها . ولن يهدأ حتى يعثر عليه .

وإذا كان الشاعر يلجأ إلى البحث عن البديل الموضوعي لانفعالاته ليحددها ، فإننا نطالب منه أن يكون ذلك البديل صائباً ، ولم يدرك من قبل ، أو نادراً ما أدرك حتى يأتينا بكشف جديد صادق .

والاستعارة نفسها قائمة على علاقات لغوية ليست بدورها إلاً بديلاً موضوعياً للعلاقات بين الأشياء وعلاقة هذه الأشياء بنفس الشاعر .

إن الواقع نفسه يتكون من علاقات متداخلة معقدة كلّ التعقيد ، وعندما يكون الشاعر على علاقة بالأشياء أو بالكائنات ، فإنه يتولد عنده انفعال بازائها . والشاعر لا يستطيع رؤية الأشياء كما هي حقيقة ، ولا أن يكون شديداً بازائها ما لم يحدد الشاعر التي تربطه بها ، ومعنى ذلك أنه يحدد وجهة نظره تجاهها .

(١٠٥) سي . دي - لوي - لويس : الصورة الشعرية / ٨٤ (الترجمة العربية ترجمتي وآخرين - بغداد : دار الرشيد ١٩٨٢) .

(١٠٦) البديل الموضوعي : اصطلاح أوجده الناقد الشاعر (ت . س . اليوت) ، وحدده بقوله : (انه سلسلة من الاهداف ، وموقف معين ، وسلسلة من الاحداث التي تكون منها جسيماً معادلة تلك العاطفة الممتدة بحيث يتم تحريك هذه العاطفة حالاً يقدم الشاعر الحقائق الخارجية التي ينبغي أن تنتهي بها التجربة الحية) .
ينظر : م . ل . روز نال : شعراء المدرسة الحديثة / ١٢٣ (ترجمة جميل الحسيني ، ط . بيروت ١٩٦٣) .

الدكتور أحمد نصيف الجنابي

ونحن نوافق (هيوم) حين يقرر : « أن مهمة الشاعر هي رؤية الأشياء كما هي عليه ، وأن يمرّن نفسه على تفكير مركز وسيطرة على النفس » (١٠٧) .
ليقبض على ما يراه ضرورياً للتعبير الحقيقي عن رؤيته .

★ ★ ★

(١٠٧) الصورة الشعرية للشاعر الناقد : سي . داي - لويس ، ترجمة د . أحمد نصيف الجنابي وزميله ، نشر دار الرشيد ببغداد ١٩٨٢ .

المبحث الثالث

ظاهرة المُشْتَرَك اللفظي بين وضوح الدلالة وغموضها

(١)

إن وجود « ظاهرة المشترك اللفظي » بهذا الوضوح ، في لغتنا الجميلة ، لفت نظر علمائنا إليها ، وحفزهم على التأليف فيها ، منذ عهد بكر نسيباً .

وأول من أَلَّف في « الظاهرة » مقاتل بن سليمان ، اللغوي المفسر (ت ١٥٠هـ) ويعد كتابه : « الأشباه والنظائر في القرآن الكريم » باكورة المصنفات في ظاهرة المشترك اللفظي .

وألف بعده الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) كتاباً في الظاهرة سماه (الأجناس) نقل منه السيوطي في المزهري (١٠٨) .

ثم تلاهما « ابراهيم بن يحيى بن المبارك الزبيدي » (ت ٢٢٥ هـ) ، فألف كتابه : (ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه) (١٠٩) .

وللامام المقرئ اللغوي : أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) كتاب في الظاهرة نفسها عنوانه (الأجناس) (١١٠) .

وللمبرد (ت ٢٨٦ هـ) كتاب في الظاهرة عنوانه : (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد) (١١١) .

وتوالى بعد هذا المؤلفات في الظاهرة ، غير أنها لا تعدو جمع الألفاظ ، ووضع المعاني التي تندرج تحت كل لفظة ، كما يظهر من المؤلفات الباقية في الموضوع (١١٢) .

(١٠٨) المزهري ١/٣٧٢ . (١٠٩) النهروان : ٥١ .

(١١٠) حققه الأستاذ : امتياز عرشي الراجحي ، ونشره في بامباي - بالهند ، سنة ١٩٣٨م .

(١١١) نشر في مصر سنة ١٣٥٠ هـ .

(١١٢) تعد معجمات الألفاظ كالعين وما سار على منهجه ، والصحاح وما تبعه من كتب المشترك اللفظي ، أيضاً .

الدكتور أحمد نصيف الجنابي

غير أن أهم المؤلفات في هذه الظاهرة هو كتاب
(نزهة العيون النواظر في علم الوجوه والنظائر) ، لابي السرج
عبدالرحمن بن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) . وقد جمع فيه (٣٢٤) لفظاً من
ألفاظ المشترك اللفظي ، أي بزيادة (١٣٩) لفظاً على كتاب « مقاتل » .
وقد حقق الكتاب (محمد عبد الكريم كاظم الراضي) ، ونشرته مؤسسة
الرسالة ، ببيرت سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

(٢)

وعلى الرغم من وجود ظاهرة المشترك اللفظي بهذا الوضوح فقد وقف
العلماء اللغويون والداليون : القدامى والمحدثون منها مواقف مختلفة . ولذلك
يمكن تقسيم مواقفهم من هذه الظاهرة ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أقرّوا بوجود هذه الظاهرة في أصل الرضع ، ولم يلاحظوا
أيّ سلبية في هذا الوجود ، في اللغة . وهم أمثال : مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) ،
والخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) ، وأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)
وإبراهيم بن يحيى بن المبارك البزدي (ت ٢٢٥ هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ) ،
والمبرد (ت ٢٨٦ هـ) ، والأزهري (٣٧١ هـ) ، وأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ،
والجوهري (نحو ٤٠٠ هـ) ، وابن الجوزي (٥٩٧ هـ) ، وغير هؤلاء كثير .
وهذا هو القسم الغالب ، وغيره قليل ونادر .

القسم الثاني : وهم نفر قليل ، قالوا : « إن اتفاق اللفظين واختلاف
المعنيين ، ينبغي ألاّ يكون قصداً في الرضع ولا أصلاً ، ولكنه من لغات
تداخلت . أو تكون كل لفظة تُستعمل بمعنى ، ثم تُستعار لشيء فتكثر
وتغلب فتصير بمنزلة الأصل » (١١٣) .

وهذا رأي ابن سيده ومن تابعه .
ولو نظر ابن سيده إلى كتابه (المحكم) ، وهو من معجمات الألفاظ ،
لتبين له وجود هذه الظاهرة في اللغة بأجل مظاهرها .

ففي العربية - مثلاً - مئات من الكلمات تطلق على معانٍ متعددة في آن
واحد ، عند جماعة واحدة .

فتجن نطلق لفظة (الرسالة) على (المکتوب) الذي نرسله الى من نعرفهم سواء أكانوا أصدقاء أم أهلاً .

ونطابقها على الكتاب الذي يؤلف في موضوع واحد لا يتجاوزه ، مثل رسالة الترييح والتدوير ، للجاحظ . ورسالة الصحابة ، لابن المقفع ، ورسالة الصداقة والصدیق ، لأبي حيان التوحيد .

وفي العصر الحديث نطلق لفظة (عمایة) على العمایة الجراحية ، فنقول : تُجرى العمليات الدقيقة في مستشفى مدينة الطب ، وأجريت لصدیقي عملية اللوزتين .

ونطاق لفظة (العملية) على النشاط العسكري ، فنقول : قام المقاتلُ بعمليات جريئة في الميدان .

ونطلق اللفظة نفسها على العمایات الأربع في الرياضيات . ونستعمل الفعل (يقوم) للدلالة على القيام . ويستعمل ليدل على الشاوك الإنساني صالحاً كان أو غير صالح . كما يستعمل ليدل على ممان أخرى لسنا بصدد تفصيلها ؛ لأننا لم نرد إلا التمثيل لإبطال وجهة نظر ابن سيده .

القسم الثالث : قالوا : إن وجود المشترك اللفظي يولد الإبهام ، أو الغموض ، أو التعمية .

وقد قال بهذا الرأي من علمائنا (ابن درستويه) « ت ٣٤٧ هـ » ومن علماء الدلالة (١١٥) المحدثين (بالمر) Palmer ، و (ألمان) (١١٧) Ullmann :

(١١٤) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه . من الثنوين والدلائين المرونيين . ألف شرح الفصح ، وفعل وأفعل ، وكتب في القراءات . وتوفي ببغداد (تاريخ بغداد ٢٨٨/٩ والبنية ٢/٣٦)

(١١٥) أستاذ علم اللغة بجامعة ريدنك . (١١٦) University of Reading

(١١٧) أستاذ علم اللغة ، بجامعة ليدز Leads بالملكة المتحدة .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

أما ابن درستويه فيرى « أن اللغة موضوعة للابانة عن المعاني . فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد الآخر ، لما كان ذلك إبانة ، بل تعمية وتغطية . ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا ، لعلل ، كما يجيء فعل وأنعل فيتوهم من لا يعرف العلل أنهما لمعنيين مختلفين ، وإن اتفق اللفظان والسماع في ذلك صحيح من العرب ، فالتأويل عليه خطأ .. » (١١٨) .

أما (بالمر) فيرى « أن دلالة اللفظة الواحدة على أكثر من معنى يخلق صعوبة في الفهم .. » ، ويسمي تلك الصعوبة التي تنشأ من عدم التمييز بين المعنيين « مشكاة » (١١٩) Problem .

وقد اختار (بالمر) كلمة (الطيران) التي تدل في الانكليزية على رحلة جوية ، وعلى القدرة على الطيران ، وتعني أيضاً اتحاد القوة الجوية :

فمن الصعوبة — عنده — التمييز بين معاني كلمة (الطيران) إذ ليس من السهل التمييز بين معاني هذه الكلمة . هكذا يقول بالمر .

ولا يكتفي بذلك ، بل يعطي مثالا آخر على ماسماه (مشكاة) . وهو الفعل (نأكل) ، ويقول : « من الواضح أننا نأكل أنواعاً مختلفة من الأطعمة بطرق متباينة ... وإذا لم نُعبر هذه المسألة احتكاماً ، فإننا نقر بأن الفعل له معانٍ مختلفة تبعاً لأنواع الطعام التي نأكلها » (١٢٠) .

ولو فوقشت وجهة نظر (بالمر) ، في ضوء الأساليب العربية لبدت بعيدة عن الصواب ، سواء أكان استعمال الفعل (نأكل) حقيقياً أم مجازياً .

ونناقش الفعل (يأكل) فنراه يعني أكل الطعام حقيقة :

(١١٨) الزمر ١/٢٨٥

F. R. Palmer : Semantics, P. 65 (١١٩)

Palmer : Ibid ., P. 65 (١٢٠)

(١) قال تعالى : (١٠ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) (١٢١) .

(٢) وقال تعالى : (وقالوا : ١٠ لهذا الرسولِ يأْكُلُ الطَّعامَ ويشربُ في الأسواقِ) (١٢٢) .

(٣) وقال تعالى : (كُلُوا واشْرَبُوا هَتِينًا بما أسلفتم في الأيام الخالية) (١٢٣) .

وهنا نرى أن الاستعمالات الثلاثة واضحة الدلالة ، وليس فيها أي غموض ، ولا إبهام ولا مشكلة في فهم الدلالة ..

ثم نلاحظ استعمال الفعل المجازي ، فنقرأ الآيات الكريمة الآتية :

(١) قال تعالى : (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) (١٢٤) .

أي : من كان قِئماً على أموال القاصرين ، فليأخذ منها بالإنصاف والعدل ، بعيداً عن التعسف والظلم .

(٢) وقال تعالى — حكاية عن عيسى : (وَأُمَّهُ صِدْقَةٌ كَانَ يَأْكُلَانِ الطَّعامَ) (١٢٥) .

وهذا الاستعمال للفعل (يأكل) كناية عن بشرية عيسى بن مريم عليهما السلام .

(٣) وقال تعالى : في شأن تأويل يوسُفَ لرؤيا الملك : (ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ (١٢٦) يأْكُلْنَ ما قَدْ هَمَّتْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِنُونَ) (١٢٧)

(١٢١) سورة المؤمنون . الآية : ٣٣ .

(١٢٢) سورة الفرقان . الآية : ٧ .

(١٢٣) سورة الحاقة . الآية : ٢٤ .

(١٢٤) سورة النساء . الآية : ٦ .

(١٢٥) سورة المائدة . الآية : ٧٥ .

(١٢٦) أي : سنوات سبع شداد يقصلهن رعلهن .

(١٢٧) سورة يوسف . الآية : ٤٨ .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

وهنا استعمل الفعل استعمالاً مجازياً كناية عن القحط والمحئل .
 فماذا نجد ؟ هل نجد غموضاً ؟ وهل نجد إبهاماً ؟
 إننا لا نجد سوى الرضوح في الدلالة ، بحيث لا تخفى على أحد يعرف
 هذه اللغة .

ونأخذ الفعل مسنداً الى الطير والأنعام ، فتكون النتيجة كأختها .

(١) قال تعالى : (وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ) (١٢٨) .

(٢) وقال تعالى : (فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ) (١٢٩) .

فأي وضوح بعد هذا ، وأي بيان ؟ !

وأين المشكلة الدلالية التي تصورها (بالمر) ؟ !

لكن الأستاذ (س . أولمان) يرى أن ظاهرة المشترك اللفظي كثيرة الوجود
 في اللغة الانكليزية ، ويرى أن هذه الظاهرة سببة من سمات الكلام والعقل
 البشريين يتميز بهما عن بقية المخاوقات . ولولا وجود هذه الظاهرة لأصبح
 وضع كلمة مستقلة لكل شيء من الأشياء - وهو ما أراده بالمر - عبثاً ثقيلاً
 على الذاكرة الانسانية ، فان اللغة في استطاعتها أن تعبر عن الفكر المتعددة
 بوساطة تلك الطريقة الحصيفة القادرة التي تتمثل في تطويع الكلمات وتأهياها
 للقيام بعدد من الوظائف المختلفة ؛ وبفضل هذه الوسيلة تكتسب الكلمات
 نفسها نوعاً من المرونة والطواعية (١٣٠) .

ولا يقف (أولمان) عند هذا الحد ، بل يرى أن هذه الظاهرة تولد نوعاً
 من الغموض ، فيقول : « أما الثمن الذي تقدمه الكلمات في مقابل هذه

(١٢٨) سورة يوسف الآية : ٤١ .

(١٢٩) سورة السجدة . الآية ٢٧ .

(١٣٠) - (١٣١) س . أولمان : درر الكلمة في اللغة / ١١٥ (ترجمة الدكتور كمال محمد)

المزايا كلها ، فيمثل في ذلك الخطر الجسيم : خطر الغموض . على أن تعدد المعنى ليس هو المصدر الوحيد للغموض ؛ وأن كان - بدون شك - أساساً من أسس توليد هذا الغموض « (١٣١) .

إنّ اللغويين والدلالين الذين يقولون : إنّ المشترك اللفظي يحدث « تعمية وتغطية » - كما يقول : ابن درستويه - أو يحدث التباساً في التفهم يولد مشكلة دلالية - كما يقول : بالمر - أو يحدث غموضاً - كما يقول : أولمان - إن جميع هؤلاء ومن تابعهم - فاتهم ثلاثة أمور تدخل في تحديد دلالة اللفظة ، ولو راعوا هذه القضايا الثلاث لما قالوا بهذا الذي عرفناه . كما سيتضح . وهذه القضايا هي :

أولاً : السياق .

ثانياً : المعنى الحضورى للتركيب اللغوي .

ثالثاً : التركيز الدلالي .

أما السياق فإنه يحدد دلالة الكلمة تحديداً دقيقاً مهما تعددت معانيها ، وهو (صمام الأمان ضدّ اللّبس) ، كما سمّاه بعض المعاصرين (١٣٢) .

والسياق المعنى - هنا - هو موقع الكلمة في التركيب اللغوي (١٣٣) ، ويفترض المشترك اللفظي أن تكون للكلمة معان عديدة، وهو أمر يعد من البديهيات عند دارسي علم الدلالة ..

بشر ، ط . مصر ١٩٧٢ ()

(١٣٢) اللغة : لفتوديس / ٢٧٢ .

(١٣٣) تختلف تفسيحات اللغويين المحدثين للسياق . وقد اقتصرت على المعنى التقليدي المشهور له ...

تظهر التفصيلات في : دور الكلمة في اللغة / ٥٤ - ٥٥ . والفتة العربية معناها وبنائها

/ ٢٢٧ - ٢٢٩ ، وكذلك :

Ogden and Richards: The Meaning of Meaning P. 58.

Palmer : Semantics , pp. 52 - 53 .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

- (فالعين) تطلق في العربية ويراد بها :
- (١) ما يرجع الى العين الناطرة ، وهو قسمان : ..
- أ - ما يزجج اليها بالاشتياق .
- ب - ما يرجع اليها بالثبته .
- فأما الذي يوجبه الاشتياق ، فعلى قسنيين :
- مصدر ، وغير مصدر .
- والمصدر ثلاثة ألفاظ :
- العين : الإصاابة بالعين .
- والعين : أن تضرب الرجل في عينه .
- والعين : المعاينة ..
- وغير المصدر ثلاثة ألفاظ ، هي :
- العين : أدل الدار .
- والعين : المال الحاضر .
- والعين : الشيء الحاضر .
- أما الذي يرجع الى التشبيه فسته معان :
- العين : الجاسوس ؛ لأنه يطلع على الأمور الخفية .
- وعين الشيء : خياره .
- والعين : الريثة ، وهو الذي يرقب القوم .
- وعين القوم : سيد هم .
- والعين : واحد الأعيان وهم الأخوة الأشقاء .
- والعين : الحرث .
- كل هذه مشبهة بالعين اشرفها (١٣٤) .

(١٣٤) انزومة العين النواظر ، صفحات : ٤٤٣ وما بعدها . والمزمع ٣٧٤ : ، والنان (عين) .

(٢) أما ما لا يرجع الى العين الناظرة ، فعشرة معان (١٣٥) :

العين : الدينار ..

والعين : اعوجاج في الميزان ، أي : اذا رجحت احدى كفتيه .

والعين : سحابة تأتي من ناحية القبلة .

والعين : مطر يدوم أياماً كثيرة لا يتقاع .

والعين : طائر .

والعين : عين الماء .

والعين : عين الرُّكْبَةِ ، وهي نقرة في مقدمة لها .

والعين : عين الشمس .

والعين : عينُ القبلة .

وعين كل شيء : ذاته . تقول : جاء الرجل عينه ، أي : ذاته .

فاذا أضفنا الى هذا المعاني التي وُلِدَتْ ، وأضيفت الى ما تدل عليه كلمة

(العين) ، ادركنا غنى اللغة العربية وسعتها ...

واكن* كيف نميز بين معنى وآخر ...

إن الاستعمال هو المميز بين معنى ومعنى * إن الكلمة لما على وجه العموم

من المعاني يتلوه ما لها من الاستعمالات واكن* كل معنى منها مستقل عن

عن المعاني الاخرى ، اذ انه لا يكون في ذهننا عند استعمال الكلمة إلا معنى

واحد * (١٣٦) .

هذا من جهة التمييز بين المعاني المختلفة .

أما تحديد الدلالة تحديداً دقيقاً ، فيرجع الى السياق . وفي هذا يقول العالم

اللغوي * فنديس * : « الذي يعينُ قيمة الكلمات في كل الحالات إنما هو

(١٣٥) المزمر ١ : ٣٧٥ والسان (عين) .

(١٣٦) اللغة / ٢٤٢ .

الدكتور احمد نصيف الجنابي

السياق ، اذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جَوِّ يحدد معناها تحديداً دقيقاً . والسياق هو الذي يفرضُ قيمةً واحداً بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلَّ عليها ، (١٣٧) .

ومن الأمثلة على تحديد السياق الدلالة تحديداً دقيقاً ، استعمال لفظة (السماء) التي تدل على معان عدة ، يميزها الاستعمال ، ويحددها السياق .

— فهي تدل على ما يقابل الأرض ، وهو المعنى العام المشهور لها .

وقد جاءت بهذه الدلالة في هذا السياق القرآني :

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آياتٍ لأولى الألباب) (١٣٨) .

— ودلت على السقف — في هذا السياق القرآني :

(مَنْ كَانَ يَتَّقِنُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ لِيَطَّلِعْ) (١٣٩) .

— ودلت على المطر ، في هذا السياق ، الذي جاء في بيت معود

الحكماء (١٤٠) :

إذا نزلت السماء بأرض قومٍ رعيته وإن كانوا غيظابا ..

أما النقطة الثانية التي أهملها اللغويون القدامى والمحدثون — الذين قالوا :

إنَّ المشترك اللفظي يسبب التباساً او غموضاً — فهي أنهم لم يُراعوا المعنى

الحضوري للكلمة المفردة ، ولا العبارة ، ولا الجملة ، ولا البيت الشعري ،

ولا المقطرعة ، ولا القصيدة . إنهم أهملوا المعنى الحضوري للتركيب اللغوي .

(١٣٧) اللثة / ٢٣١ .

(١٣٨) سورة آل عمران . الآية : ١٩٠ .

(١٣٩) سورة الحج . الآية : ١٥ .

(١٤٠) النجد في اللغة . لكراع / ١٠٢ .

إنّ لغة معنى حضورياً ، وإنّ الكلمات ليست أحجاراً مرصوفة ، ولا كائنات جامدة . إنها أحداث حيّة ما دامت تصدر عن حيّ عاقل ، ويخاطب بها العقلاء الذين يملكون مشاعر وأحاسيس دقيقة . وهذا يعني أنّ دلالتها تتأثر بما يحيط بها ، سواء أكان ذلك من جانب المتكلم أم من جانب المخاطب . أو من جانب المحيط الإنساني والماديّ الجامد على حدّ سواء .

إنّ الجملة الواحدة قد يكون لها أكثر من مدلول واحد حين تصدر في حالات مختلفة عن شخص واحد .

فأنت تسأل إنساناً — كان مريضاً — فتزوره بعد شفائه ، فتقول : كيف حالك ؟ فيقول : « الحمد لله » .

وهذا يعني أنه قد شفي من مرضه ، وشعر بالعافية ، وأحسن بحلّولها بعد المرض . وما أحلى العافية بعد السقم !

وتسأل هذا الإنسان — وهو مظلوم أو محزون لسبب من الأسباب — كيف حالك ؟ فيجيب : « الحمد لله » .

وهذه العبارة تعني : الحمد لله الذي لا يُحمد على مكرمه سواء .

ويقف هذا الإنسان أمام ربه خمس مرّات في اليوم واللييلة ، فيقرأ سورة الفاتحة في الصلّوات الخمس سبع عشرة مرة (إن اكتفى بالفرائض) ، وفي كل مرة يفتح القراءة قائلاً : (الحمد لله ربّ العالمين) . وكيف لا يحمده وقد هداه إلى أقوم السبيل ، واكرمه بهذا النبيّ الكريم ، وبهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

أمّا تأثر مدلول الكلمة أو الحدث اللغوي بالثقافيّ أو السامع ، فيُحدث أرجاعاً قد تكون بعيدة المدى .

ومن أمثلته الجديرة بالذکر — هنا — ما أورده مؤرّخو الأدب عن الشاعر المعروف (ذي الرّثمة) .

الدكتور أحمد نصيف الجنابي

فقد نظم قصيدته البائية التي عدت* من غرر القصائد في عصرها :
 ما بال عينك منها الماء ينسكبُ

كأته من كل مفرقة سربُ

وأشدها أمام (عبدالمالك بن مروان) ، وكانت عيناه تسيلان دماً دائماً
 (لمرض مزون) ، فظنَّ عبدالمالك أنَّ ذا الرِّمَّةَ عرض به ! فغضب عليه ،
 وقطع إنشاده ، وأمر بإخراجه من حضرته (١٤١) .
 إن هذه البائية عدت عند النقاد العرب المعاصرين للشاعر أو القرابين من
 عصره ، من أحن قصائد ذي الرِّمَّة .

وان عبدالمالك لما سمعها - بعد أن غيرَ الشاعر لفظة عينك بلفظة عيني -
 قال للشاعر : لو أنَّ قصيدتك قيلت في الجاهلية لسجدت العرب لها !
 وان عبدالمالك هو الذي أرسل الى الشاعر - قبل أن ينشده - من أحضره ،
 لأنه ذكره له جودة شعره ، فأحبَّ أن يراه ويسمع شعره !
 فما الخبر ؟ وما الخطاب الذي جعل عبدالمالك يغضب على الشاعر ،
 ويخرجه من حضرته ؟

إنه : « ما بال عينك منها الماء ينسكبُ »

إنه اقتران غير سعيد ... وآء كل هذا .

ولما غيرَ الشاعر ضمير المخاطب الى ضمير المتكلم ، فقال :

« ما بال عيني منها الماء ينسكبُ »

تغير كل شيء ، وصارت القصيدة مثلاً أعلى في الشعر العربي !
 رأيت كيف حدث كل هذا من أجل اقتران لفظة بحالة من حالات
 المخاطب ، لا يجب أن يخاطبه الناس بها ؟!

أما ما يُحدثه اقتران الحدث اللغوي بشيء مادّي يعطي الدلالة معنى
 حضورياً ، فمن أمثله ما ذكره صاحب (الهفوات النادرة) ، إذ قال :

(١٤١) الهفوات النادرة . لرس النمة صفحات : ٤٢ - ٤٣ .

و لما فرغ (المعتصم) من بناء قصره الذي شيّده ييغداد لعنته (العباسية) ،
جلس فيه ، وجمع أهل بيته وقومه وأصحابه ، وأمر الناس أن يلبسوا
الديباج ، ويدخلوا عليه ... وجلس هو على سرير مُرَصَّع بأنواع الجواهر ،
ووضع على رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة ، فما رأى الناس أحسنَ من
ذلك اليوم .

كل هذا جميل وطبيعي حين . يصدر عن ملك ...

لكن الذي جعل هذا الرضع يتقلب رأساً على عقب هو امتداز (اسحاق
الموصلي) الشاعر المغني ، على (المعتصم) لبشده شعراً ، فأذن له ، فأنشده
قصيدته التي مطلعها :

يا دارُ غَيْرِكَ اليلى فمحاك

يا ليت شعري ما الذي أبلاك ؟

فلما سمع (المعتصم) هذا المطلع المفاجئ ، تطير منه !!

أما الحاضرون فقد تغامزوا على (اسحاق الموصلي) ، وقالوا : كيف

فاته هذا المقام ، وهو الخبير بمجالسة الملوك ؟ !

ثم خرج (المعتصم) الى (ساهراء) ، وخرّب القصر .. !!

أرأيت كيف يفعل الاقتران الحضورى للتركيب اللغوي بشيء

مادّيّ ؟ وكيف يحدد الدلالة تحليداً دقيقاً ، واسع الأثر ، بعيد المدى ؟

أما التتقلة الثالثة التي أهملوها ، فهي قضية « التركيز الدلالي » ، وأعني

به : « تكليف أكثر من معنى في اللفظة الواحدة » ، في جملة واحدة ، في

سياق واحد ، لغاية وهدف مقصودين ، بحيث تكبرن كل تلك المعاني مطاوعة

في التركيب اللغوي مقصودة من إيرادها .

ففي اللغة العربية النصحى ، ولاسيما لغة القرآن الكريم ، مواطن كثيرة تأتي

فيها لفظة واحدة ، لتؤدى أكثر من معنى واحد ، في آن واحد .

الدكتور احمد نصيف الجناحي

وأرى أن هذه السمة ، من خصائص اللغة العربية التي لا نجدها في لغة من اللغات الحية الاخرى .

ومن أمثلة ذلك لفظة (ساهلون) في الآية الكريمة : (أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم ساهلون . فاستجدوا لله واعبدوا) (١٤٢) .

فما دلالة « السمود » في الآية الكريمة ؟

لقد فسرها عبدالله بن عباس (ت ٦٨ هـ) بالغناء ، وقال : هي لهجة يمانية . وتابعه على ذلك تلميذه عكرمة بن عبدالله (ت ١٠٤ هـ) .

وفسرها المقرئ المفسر مجاهد بن جبر (ت ١٠٣ هـ) بالبرطمة (تقطيب الشفتين) ، وهي دلالة على عدم الرضا .

وفسرها عبدالرحمن بن زيد (ت ١٨٢ هـ) ، فقال : السامد : الغافل . (١٤٣) .

وقال الضحاك بن زاحم الحلالي (ت بعد سنة ١٠٠ هـ) : « السمود : اللهو واللعب » .

وقال الليث بن المظفر (وهو لغوي معروف) : « ساهلون : ساهون . والسمود في الناس انفلة والسهر عن الشيء » .

وقال المبرد : « السامد : القائم في تحيير » (١٤٤) .

فأي المعاني صحيحة ؟

أرى أن كل هذه الأقوال صحيحة .

(١٤٢) سورة النجم . الآيتان : ٦٠ - ٦١ .

(١٤٣) تفسير الطبري ٢٧ : ٤٨ ، ٤٩ .

(١٤٤) تهذيب اللغة (سد) ٣٧٧/١٢ ، واللسان (سد) ٢٠٤ .

غير أن الذي ينقصها هو أن كل واحد من أهل العلم نظر الى اللفظة نظرة جزئية ، ولم يفتن الى هذا التركيز الدلالي في اللفظة : (سامدون) .
إن المقصود بالكلمة في هذا السياق ، هو كل هذه المعاني وإن دلالتها تتسع لكل هذه المعاني .

فهؤلاء الذين اعرضوا عن القرآن الكريم وعن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، هم اللاهون عن ذكر الله ورسالة نبيه الكريم ، بالغناء . وهم الساهون عنه . وهم المتجبرون بطراً وأشرأ وطغياناً . وهم التكبرون عن الخضوع لحكم الله وشريعته .

واتساقاً مع هذا التركيز الدلالي ، فالسجود في الآية الكريمة التي جاءت في السياق نفسه : (فاسجدُوا لله واعبدُوا) ، لا يراد به السجود في الصلاة ، لأن المخاطبين ليسوا من المسلمين حتى يُصَلَّوا . بل المراد به الخضوع والتسليم لأمر الله . وهو المعنى العام للسجود المعروف عند العرب قبل الإسلام (وقد مضى شرحه) .

والخلاصة أن هذه العوامل الثلاثة : السياق ، والمعنى الحضوري للتركيب اللغوي ، والتركيز الدلالي تؤثر في تحديد الدلالة تأثيراً واضحاً ، وتحديد المقصود بالحدث اللغوي تحديداً دقيقاً ، فتزيل اللبس ، والإبهام ، والغموض ، إن وجدت .

★ ★ ★